

تصدير ومقدمة كتاب التجليات الروحية فى الإسلام "  
نصوص صوفية عبر التاريخ

## أهداء

إلى كل نفس حرة طليقة  
أصغت إلى دعوة الحق فى سرها  
فانطلقت فى سبيل الحب الكامل  
لله وللخلق أجمع  
حتى أفنت ذاتها فى خدمة الجميع  
فلقيت فى مماتها الحياة والقيامة

فَلَمْ تَهْوِنِي مَا لَمْ تَكُنْ فِيَّ فَانِيَا      وَلَمْ تَفْنِ مَا لَمْ تُجْتَلَى فِيكَ صُورَتِي  
هُوَ الْحُبُّ إِنْ لَمْ تَقْضِ لَمْ تَقْضِ مَارَبَا      مِنْ الْحُبِّ فَاخْتَرُ ذَاكَ أَوْ خَلَّ خُلَّتِي

عمر بن الفارض، *الثانية الكبرى*، الأبيات 99 . 102

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

قد تتفق معي - أيها القارئ المدقق في هذا السفر الثمين - أن الكتابة في التصوف عامة، وفي التصوف الإسلامي خاصة، ليست سهلة ولا ميسورة، وأن الحكم له أو عليه أمر بالغ الصعوبة، إذا ما أريد لهذا الحكم أن يجيء ثمرة لنظر دقيق في تراث التصوف من ناحية، وفي مقاصد الأديان وآفاقها المتعالية من ناحية أخرى. وما لم يتأهل الباحث للسير في هذين الحقلين على هدي من نور العقل ونور القلب معًا فإن نتائج بحثه لا تنجو من القلق والاضطراب إن لم نُقل: من التضارب والتناقض.

ولعل السبب في ذلك أن التجربة الصوفية في جوهرها تجربة ذاتية، متفردة غير قابلة للتكرار أو الاشتراك، وأن اللغة على اتساعها كثيرًا ما تعجز عن الإفصاح بمكونات هذه التجارب وأسرارها المعقدة، ومن أئمة التصوف أنفسهم من لفتوا إلى هذا الملحظ وهم يتحدثون عن صعوبة "تعريف التصوف"، وقرروا أنه لا مطمع في تحديد معناه تحديدًا جامعًا مانعًا، لتبدل أحوال الصوفي وتغير إرادته وتعدد أذواقه ومواجهته، وأن غاية ما يقال في هذا الباب إنما هو إشارات وعبارات تومئ من بعيد إلى معنى يقع خلف العبارات والإشارات:

عباراتهم شتى، وحسنك واحد .. وكلُّ إلى ذلك الجمال يشير

وإذا أضفت إلى سعة الذوق الصوفي ضيق اللغة عن وصفه وشرحه أدركت "عسر" اللغة الصوفية، وبخاصة تلك التي تتعلق بشوارق "الحب الإلهي" عند المؤلِّهين من أهل الله. وعلمت أن ما يصدر عنهم أحيانًا من عبارات "قلقة" أو "متوترة" بمقاييس الشرع إنما مردها إلى أحوال تملكهم، وليس إلى ضلالات يقترفونها عن وعي وقصد.

وهذا هو شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، وهو عمدة ناقدى الصوفية والتصوف، وملهمهم الأكبر على مدى قرون عدة، لم يسعه إلا أن يلتمس العذر لأرباب الأحوال، وقد اعترف- في شيء غير قليل من الإنصاف وحسن القصد- أن مقام "السُّكْر" في الحب الإلهي أرفع منزلة من مقام "الصحو"، وقال، وهو يتحدث من التصوف والصوفية "ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنونًا. ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذين يُعدون في النَّسَاك وقد يسمَّون: المولَّهين". (فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشى أو الموت أو الجنون أو السُّكْر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك، إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقًا عاجزًا عن دفعها كان محمودًا على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان، معذورًا فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله. ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم. وهذه حال الصحابة، رضى الله عنهم، وهو حال نبينا صلى الله عليه وسلم فإنه أُسْرِيَ به إلى السماء وأراه الله ما أراه، وأصبح كبات لم يتغير عليه حاله، فحاله أفضل من حال موسى، صلى الله عليه وسلم، الذي خر صعقًا لما تجلَّى ربه للجبل وحال موسى حال جليلة عليه فاضلة: لكن حال محمد صلى الله عليه وسلم أكمل وأعلى وأفضل<sup>(1)</sup>.

وهذا الكتاب الجليل الذي نُقِّدَّم له يعرض في أمانة علمية دقيقة مظاهر التجليات الرُّوحية في الإسلام ويتحدث عن التصوف الإسلامي نشأةً وتطورًا وازدهارًا وعرضًا لبعض المفاهيم والقضايا الإنسانية، وذلك من خلال نصوص شيوخ التصوف أنفسهم، أخذًا من كتبهم وأقوالهم، بدءًا من القرن الأول

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 11، 12-13، مطابع الرياض، 1381هـ.

وانتهاءً بالقرن السابع الهجريين. والكتاب فى هذه الخطة العلمية الجادة سجلٌ حافل لأقوال الصوفية المسلمين فى هذه الفترة التاريخية الطويلة، ومنجم مملوء بمأثورات كبار الشيوخ والعارفين بالله تعالى؛ وقد جمع هذا الكتاب دررًا غوالي من عيون قصائد الحب الإلهى وأسارته، واحتشد فيه من أقوال الصوفية قدر كبير قلَّ أن يجتمع فى سفر آخر قبل هذا الكتاب.

ومما يزيد القارئ اعتزازًا وتقديرًا لهذا المصنف الخصب الثرى أن جامعه أ.د. جوزيف سكاتولين عالم كبير جليل القدر فى ميدان التصوف الإسلامى، وقد قضى شطرًا طويلًا من عمره المبارك المديد غارقًا فى تحصيل علوم القوم ومعايشتها ودراستها وتدريسها، وهو أستاذ التصوف الإسلامى بالمعهد البابوى للدراسات الإسلامية والعربية بمدينة روما، وأحد كبار المغردين فى دوحه الشاعر الصوفى المصرى سلطان العاشقين: ابن الفارض، وله أيادٍ بيضاء فى تحقيق ديوانه وإخراجه لأول مرة فى نشرة علمية نقدية، وذلك رغم عُسر اللغة الشعرية فى قصائد سلطان العاشقين، ورغم الغموض الشديد الذى يجعل مفرداته العذبة والقوية فى الآن نفسه، وقد استطاع أ.د. جوزيف سكاتولين - وهو الغريب عن العربية - أن يغوص فى لغة ابن الفارض، ويستخلص لنا ديوانه فى نشرة علمية نادرة.

فله منا - أهل اللغة العربية - الثناء العاطر والشكر الجزيل، وللأستاذ/ أحمد حسن أنور الثناء الجميل على ما قدم فى هذا الكتاب القيم.

أ.د/ أحمد الطيب

رئيس جامعة الأزهر

# مقدمة فى التصوف

وتتضمن النقاط التالية:

- 1 حول التصوف الإسلامى.
  - 1-1: التصوف الإسلامى.
  - 2-1: مصدر التصوف الإسلامى.
  - 3-1: مكانة التصوف الإسلامى.
- 2 المتصوف الإسلامى والحوار الدينى.
  - 1-2: الإنسان كائنًا متسائلًا.
  - 2-2: التساؤل هبة إلهية.
  - 3-2: التصوف فى الأفق الوجودى الإنسانى.
- 3 المتصوف فى الوقت الراهن.
- 4 حول هذا الكتاب.
- 5 المتصوف بلسان الصوفية: تعريف التصوف عند الكلاباذى.

## 1- حول التصوف الإسلامى

### 1-1: التصوف الإسلامى

ما التصوف؟ وما مكانته فى الإسلام؟ وهل هو إسلامى الطابع أم هو أجنبى ودخيل فى الفكر الإسلامى؟ ما أهم مراحل التاريخة؟ وهل له أهمية للإنسان المعاصر؟ أو قد صار من بقايا موروث قديم لا محل له فى عصرنا العلمى التكنولوجى؟

هذه بعض التساؤلات التى تطرأ فى حديثنا عندما يُجرى فيه ذكر عن "التصوف الإسلامى" أو "التصوف فى الإسلام"، وقد تختلف الأجوبة عليها أشد الاختلاف. فهناك من يؤيد ويدافع عن فكرة التصوف حتى جعله الدين كله. وهناك من يعارض ويدين فكرة التصوف حتى التكفير بحجة أنه خارج عن دين الإسلام بل مُفسد له من أساسه. إذن، فإزاء تلك الآراء المختلفة المتضاربة، لا بد للمرء العاقل من اتخاذ موقفٍ حكيمٍ بعيد عن الأحكام المسبقة والأهواء الفردية المتحيزة. فلكذلك نرى أن أصوب وأعقل طريق إزاء هذه الإشكاليات هو اللجوء إلى الواقع التاريخى الأكثر موضوعية وثقة مع إعادة قراءة مصادره الأصلية على ضوء المناهج العلمية المقبولة عامة فى المراكز العلمية المعاصرة. لذلك نقدم هنا بعض الخطوط العامة للتصوف من ناحية تاريخه ومضمونه كما نقرؤها فى مصادره التاريخية كمقدمة عامة للنصوص المعروضة فى هذا الكتاب.

أما من الناحية التاريخية فيمكننا وصف التصوف الإسلامى بأنه ظاهرة تاريخية عامة ومهمة فى التاريخ الإسلامى كله، بل هو من أهم وأبرز تجلياته، بلا شك. والواقع أن التصوف الإسلامى يمثل حركة تاريخية واسعة ممتدة عبر القرون أنتجت إنتاجاً دينياً وثقافياً وفنياً متميزاً فى جملة الحضارة الإسلامية؛ هذا واقع لا أحد يمكنه إنكاره. فقد بدأت هذه الحركة الروحية فى القرن الأول الهجرى مع حركة

العباد والزهاد الأوائل من أمثال الحسن البصرى (ت110هـ / 728م) وغيره، ثم نمت وتطورت تلك الحركة الروحية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين مع التعمق فى خبرة الحب الإلهى من أمثال رابعة العدوية البصرية (ت185هـ / 801م)، ومع فكرة الفناء والبقاء من أمثال الجنيد (ت298هـ / 910م)، وغيرها من التبصرات الروحية. فأدّت هذه الحركة آخر الأمر إلى مأساة الحسين بن منصور الحلاج (ت309هـ / 922م) التى تُمثل فى التاريخ الإسلامى مظهرًا من مظاهر التوتر بل التصادم بين حركة الفقهاء (المتصوفة) وعالم الفقهاء (المتكلمين). بعد ذلك اتجهت هذه الحركة الروحية اتجاهاين: فهناك اتجاه عُرف بالتصوف السُننى فى القرنين الرابع والخامس الهجريين وفيما بعد، حيث اجتهد أصحابه، من أمثال الإمام أبى حامد محمد الغزالى (ت505هـ / 1111م) وغيره، فى إيجاد صيغة توافقٍ مُقنع بين الخبرة الصوفية الباطنة وظاهر الشريعة الإسلامية. فقد أنتج هذا الاتجاه الصوفى المصنّفات الصوفية العظيمة المعروفة فى التراث الصوفى، من أمثال "الرسالة القشيرية" للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى (ت465هـ / 1072م) وغيرها، و"إحياء علوم الدين" لأبى حامد محمد الغزالى نفسه، الذى يمثل قمة التصوف السنى. وإلى جانب هذا الاتجاه السنى نجد اتجاهاً آخر توغل فى مجالات أكثر نظرية وفلسفية، خاصة عند أصحاب المدرسة المسماة "وحدة الوجود" فى القرنين السادس والسابع الهجريين وفيما بعد، عند صوفية من أمثال محيى الدين بن العربى (ت638هـ / 1240م) وغيره كما سنرى فيما يلى. فقد اجتهد أصحاب هذه المدرسة فى إيجاد صيغة توافق بين التصوف وبين ما يسمونه "باطن الشريعة الإسلامية"، أى معناها العميق والمقصد الأعلى منها. فهذا الاتجاه الصوفى أيضاً أنتج مصنّفات صوفية عظيمة متشعبة بنظريات فلسفية فريدة عميقة مبدعة، أصبحت من أهم التجليات للفكر الإسلامى عبر القرون. وبعد ذلك، منذ القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى فصاعداً، تطورت حركة التصوف وتوسعت فيما يُعرف بظاهرة الطرق

الصوفية، التي ازدهرت وانتشرت في العالم الإسلامي كله حتى أيامنا الراهنة. ومن المعروف أن الطرق الصوفية قامت بدور كبير ومهم جدًا في نشر الدين الإسلامي عبر القارات وفي مجال التربية الأخلاقية لعامة الشعوب الإسلامية.

وأما من ناحية المضمون، فمن الصعب أن نقوم بتلخيص الأفكار والتجارب والتبصرات الكثيرة المتنوعة، التي أتت بها هذه الحركة الروحية عبر التاريخ في سطور معدودة. فلنذكر هنا فقط بعض التعريفات العامة للتصوف الإسلامي التي تُبرِّز بعضًا من ملامحه الرئيسية الجوهرية.

ويقول أحد أبرز الدارسين المعاصرين في التصوف الإسلامي، هو أبو الوفا الغنيمي التفتازاني (ت 1995) معرّفًا إيَّاه بقوله:

"التصوف فلسفة حياة تهدف إلى الترقى بالنفس الإنسانية أخلاقيًا، وتحقيق بواسطة رياضيات عملية معيّنة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقًا لا عقلاً، وثمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية لأنها وجدانية الطابع وذاتية"<sup>(1)</sup>.

يذكر التفتازاني في هذا التعريف بعضًا من العناصر الرئيسية التي يتميز بها التصوف، وهي: الترقى الأخلاقي، الفناء في الحقيقة العالية، العرفان الدوقى المباشر، الطمأنينة والسعادة الروحية، والرمزية في التعبير الصوفي إذ إن اللغة الصوفية يصعب فهمها لمن ليست لديه خبرة صوفية. ويُفصّل التفتازاني قوله، فيقول:

"ونظرة تحليلية إلى التصوف تبين لنا أن الصوفية على اختلافهم يتصورون طريقًا للسلوك إلى الله، تبدأ بمجاهدة النفس أخلاقيًا، ويتدرج السالك له في مراحل متعددة تُعرف عندهم بالمقامات والأحوال، وينتهي من مقاماته وأحواله إلى المعرفة

(1) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979، ص 8.

بالله، وهى نهاية الطريق. ويعنى الصوفية بالمقام مقام العبد بين يدى الله فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضيات. ومن أمثلة المقامات عندهم: التوبة والزهد والورع والفقر والصبر والرضا والتوكل وما إلى ذلك. أما الأحوال فهى ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، وليس الحال، كما يقول الطوسى، من طريق المجاهدات والعبادات التى ذكرناها. ومن أمثلة الأحوال عندهم: المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين وغير ذلك<sup>(1)</sup>.

وهناك عدد كبير من التعريفات عن التصوف ترد فى مختلف المصنفات الصوفية، وهى توضح وتبين مفهوم التصوف ومضمونه عند أصحابه. نذكر منها البعض على سبيل المثال لا الحصر:

يقول أبو القاسم النصراباذى (ت 367هـ / 977م): "التصوف نورٌ من الحق يدلُّ على الحق، وخاطرٌ منه يشير إليه، التصوف فناؤك عن الكونين ليقتى، مكوئُهُما"<sup>(2)</sup>.

يقول الغزالي: "إذا الفرق بين علوم الأولياء [أى الصوفية] والأنبياء، وبين علوم العلماء والحكماء [أى الفلاسفة] هذا، وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت، وعلم الحكمة يأتي من أبواب الحواس، المفتوحة إلى عالم الملك، وعجائب عالم القلب، وتردده بين عالمى الشهادة والغيب، لا يمكن أن يستقصى فى علم المعاملة، فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين"<sup>(3)</sup>.

قال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى (ت 926هـ / 1520م): "... هو علم تُعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن، لنيل السعادة

(1) الفتازانى، مدخل، ص 38-39.

(2) عبد الملك الخركوشى، تهذيب الأسرار، تحقيق بسام بارود، المجمع الثقافى، أبو ظبى، الإمارات، 1999، ص 36-

37.

(3) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الخير، بيروت، 1990م، ج3، ص 136.

الأبدية، وموضوعه التزكية والتصفية والتعمير المذكورات، وغايته نيل السعادة الأبدية، ومسائله ما يذكر في كتبه من المقاصد. وهذا العلم علم الوراثة التي هي نتيجة العمل، المشار إليه بخبر: من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم<sup>(1)</sup>.

وقال الإمام الشعراني (ت973هـ/1565م): "اعلم يا أخي رحمك الله أن علم التصوف عبارة عن علم انقذح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل بهما انقذح له من ذلك علوم وآداب {فى المرجع: أدب} وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها"<sup>(2)</sup>.

وخلاصة القول، فإننا نرى من أقوال المتصوفة أن التصوف يحتوى على عدد من العناصر، يمكننا تلخيصها فيما يلي:

1- إن التصوف خبرة عملية ذاتية فى المقام الأول، وليس ضرباً من العلوم النظرية مثل الفقه وعلم الكلام والفلسفة.. إلخ. فإن المعرفة الصوفية لا تأتي من دروس نظرية فى الأمور بقدر ما تُحصّل من مجاهدات ورياضات ذاتية. لذلك فإن الصوفية يتكلمون عن المعرفة كذوق أو تذوق للحقيقة الأسمى لا كعلم نظرى مجرد. فطالما تجادل المتصوفة مع "العقلانيين" الذين يعتمدون على العقل باعتباره الوسيلة الرئيسية للوصول إلى الحقيقة العليا.

2- ويتدرج السلوك الصوفى عبر عدد من المراحل الروحية التى تُسمّى عندهم المقامات (التي تأتي فى الغالب من المجاهدات الذاتية) والأحوال (التي تأتي فى الغالب من المواهب الإلهية). ويختلف عدد وترتيب هذه المراحل الروحية من صوفى لآخر. ومجموع هذه المراحل الروحية يشكل ما يسمّى بـ"الطريق الصوفى"، الذى لا بدّ من سلوكه لكل من أراد الوصول إلى غايته، فلذلك يُسمّى أيضاً بـ"السلوك الصوفى". ونظراً لصعوبة هذا الطريق فهناك مبدأ عام عند المتصوفة يُثبت أن هذا

(1) محمد على حمد، حقيقة التصوف وكرامات الأولياء، مطبعة جامعة الخرطوم، الخرطوم، 1979، ص2.

(2) عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ، ج1، ص4.

السلوك الروحي يجب أن يتم تحت إرشاد شيخ محقق يساعد المرید في تقدمه الروحي مع تجنب مخاطره.

3- وأخيرًا، يصل الصوفي إلى نهاية الطريق أو إلى مقصده الأسمى في المراحل العليا من أمثال المعرفة والمحبة، حتى الفناء التام في الحقيقة العليا، أى في الله. وهناك يصير الصوفي في حضرة "ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"<sup>(1)</sup> من الأسرار الإلهية. وقد عبر بعض الصوفية عن تلك التجربة العميقة الفريدة بعبارات غريبة عُرفت بالسطحات الصوفية، التي أثارت الاستنكار بل الشك والرفض من طرف بعض الناس بسبب صياغتها اللفظية المذهلة المُغربة. فدارت المناقشات والمجادلات واختلفت الآراء حول تلك العبارات عبر القرون، كما سنرى فيما بعد. وقد وُصفت هذه المراحل الثلاث من السلوك الصوفي بأسماء أخرى من أهمها التقسيم الثلاثي الذي كثيرًا ما نجده عند المتصوفة على النحو التالي: المرحلة الانطلاقية التي تتمثل في الشريعة (حيث يلتزم السالك بالحفاظ على أحكام الشريعة أشد التزام)، ثم تأتي مرحلة الطريقة (وهي مرحلة تهذيب الأخلاق والارتقاء بها بكسب الفضائل الحميدة وبالانصاف بالصفات الإلهية حسب الحديث الشريف المشهور: "تخلّقوا بأخلاق الله"<sup>(2)</sup>) وأخيرًا تأتي مرحلة الحقيقة (وهي المرحلة النهائية وغاية السلوك الصوفي الذي يتم باللقاء بين العبد وربّه، فيتحوّل العبد فيه تحوّلًا جذريًا إذ إنه يدخل في حضرة الحقيقة الأسمى مع الفناء التام عن نفسه وعن كل ما سوى الله).

(1) راجع نص الحديث: البخاري، بدء الخلق 8، تفسير 32، توحيد 35؛ ومسلم، الإيمان 312، الجنة 2-5؛ والترمذي، تفسير 32، 56؛ وابن ماجه، الزهد 39؛ وابن حنبل، المسند 5/234. ولهذا الحديث ما يقابله في الكتاب المقدس من آيات: انظر إلى رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنتوس، 9/2، وسفر أشعيا النبي 3/64، وسفر إرميا النبي 16/3.

(2) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين، ج 5، ص 195. المقصد الأسمى، تحقيق فضله شحاده، دار المشرق، بيروت، 1986، ص 15. إلا أنه لم يرد في المصنفات الرسمية للأحاديث.

أما بما يتعلق بقضية أصل كلمة "التصوف" ومشتقاتها مثل "صُوفِيّ"، "مُتَّصِفٌ"، وجمعه "صُوفِيَّة" أو "مُتَّصِفَةٌ"، وفعله "تَصَوَّفَ" ومصدره "تَصَوُّفٌ"، فاختلقت الآراء حولها. غير أن الدارسين، قدامى ومحدثين، أجمعوا على أن اللفظ "صوفى" مشتق بلا شك من اللفظ "الصُوف"، أى من الأصل (ص و ف)، فهذا هو الاشتقاق الوحيد الذى تحتمله اللغة. فمنه يأتى اللفظ الصوفى (النسبة) واللفظ تَصَوَّفَ (الفعل) بمعنى "لبس الصوف"، واللفظ التَصَوُّفَ (المصدر). وهناك روايات عديدة فى هذا الصدد تُثبت أن الصوف صار منذ بداية القرن الثانى الهجرى شعاراً منتشرًا بين الزهاد والعباد الأولين ممايزة لهم عن حياة الترف والبذخ المنتشرة بين الأغنياء والأمراء فى بلاط السلطة. وكذلك يرد فى العديد من الروايات ذات الطابع الصوفى القول بأن الصوف كان لبس الأنبياء والأتقياء، وهذا بلا شك تبريرٌ منهم لأسلوب حياتهم الجديدة المفارقة لعامة الناس. وإلى جانب هذا، فإن المصنفات الصوفية تقدم اشتقاقات أخرى للفظ "صوفى" مراعاةً للمعنى المقصود منه أكثر من صيغته اللغوية الصحيحة، كما سنرى فى مقدمة الكلاباذى. نذكر هنا بعضاً منها فقط على سبيل المثال لا الحصر. هناك من يقول إن اللفظ "صوفى" مشتق من الفعل (صفا- يصفو- صَفَاءٌ)، ومنه العبارة (صُوفِيّ قَلْبُهُ)، أى طَهَّرَ من كل ذنوبه وردائله، إذن، فالصوفى هو من طَهَّرَ الله قلبه وصَفَّاه فلذلك سُمِّي صُوفِيّ. وهناك من يقول إن اللفظ مشتق من "أهل الصُفَّة"، وهم قوم من فقراء المهاجرين بُنيت لهم صُفَّةٌ (أى مكان مُظَلَّل) إلى جانب مسجد رسول الإسلام بالمدينة، فمدحهم الرسول على ذلك. والمعنى المقصود أن أهل التصوف امتداد لهؤلاء الفقراء والزهاد الأوائل الذين أوصى بهم الرسول وأقر بأمرهم. وهناك من يقول إنه مشتق من لفظ "الصَّفَّ"، إشارة إلى أنهم فى الصف الأول أمام الله. وهناك من يقول إنه مشتق من الكلمة اليونانية (sofos) ومعناها "الحكيم"، وهذا لأنهم اعتبروا أنفسهم من أهل الحكمة والخبرة فهم أصحاب المعرفة الحقيقية. إلا أن هذا الاشتقاق الأخير يبدو ضعيفاً جداً إذ إن

الكلمة اليونانية (sofos) عُرِّبَت عادة عند الفلاسفة المسلمين بكلمة (سوفوس) وليس بـ(صوفى).

## 1-2: مصدر التصوف الإسلامي

لقد صارت قضية مصدر التصوف الإسلامي من القضايا الشائقة والصعبة التي شغلت الكثير من المفكرين، مسلمين وغير مسلمين زمنًا طويلاً. نذكر هنا فقط بعض الخطوط الرئيسية منها دون التوغل في تفاصيلها الجدالية الطويلة المعقدة.

ففى داخل الإسلام نجد من يؤيد التصوف ويدافع عنه باعتباره تجلياً من التجليات الشرعية للإسلام، ولكن، فى الوقت نفسه، فهناك أيضاً من يعارض التصوف حتى حد التكفير. فالذين يؤيدون التصوف يُثبتون أنه صادرٌ من المصادر الإسلامية الأصلية، أى القرآن والسنة. فهناك عدد ضخم من العلماء المتصوفة ممن اتخذوا موقفاً إيجابياً تجاه حركة التصوف. نذكر منهم فى المقام الأول الإمام الجليل، حجة الإسلام، أبا حامد محمد الغزالي (ت505هـ / 1111م)، ومعه أصحاب المصنفات الصوفية الكبرى من أمثال أبى نصر السراج الطوسى (ت378هـ / 988م)، وأبى القاسم عبد الكريم القشيري (ت465هـ / 1072م)، وغيرهم. ومن بين المدافعين عنه يجب ذكر عدد من العلماء الأجلاء المتأخرين الذين لا غبار عليهم من أهل السنة، من أمثال العلامة جلال الدين السيوطى (ت911هـ / 1505م)، وزكريا الأنصارى (ت926هـ / 1520م)، وغيرهم كثيرون.

أما من بين الذين عارضوا الحركة الصوفية، فيأتى على رأسهم جمال الدين أبو الفرج بن الجوزى (ت597هـ / 1200م)، والعالم الشهير، شيخ الإسلام، تقي الدين بن تيمية (ت728هـ / 1328م)، وبعدهما بفترة محمد بن عبد الوهاب (ت1206هـ / 1792م) الذى ذهب مذهبهما، وغيرهم ممن اتهموا الصوفية بالبدعة والخروج عن أحكام الدين حتى تكفيرهم. ويرى هؤلاء العلماء أن الصوفية أخذوا أفكارهم ومذاهبهم عن عناصر أجنبية عن الدين الإسلامى، فخلطوا بين الحق والباطل، الصواب والخطأ. أما إذا سألنا الصوفية أنفسهم فهم جميعاً يعلنون بلا تردد ويثبتون

بغير تشكك أنهم يريدون أن يكونوا مسلمين مخلصين لدينهم بلا انحراف ولا التباس، بل يدعون أنهم وصلوا إلى أقصى درجة من الإخلاص والأمانة، بل والتفانى فى حقيقة الدين الحنيف.

وإذا انتقلنا إلى الدراسات الحديثة نجد أن هناك عددًا كبيرًا من الباحثين الإسلاميين البارزين، من أمثال مصطفى عبد الرزاق (ت 1947)، وأبو العلا عفيفى (ت 1964)، ومحمد مصطفى حلمى (ت 1969)، وأبو الوفا النفتازانى (ت 1995) وعبد الرحمن بدوى (ت 2002)، وغيرهم كثيرون، الذين أجمعوا على الدفاع عن التصوف الإسلامى كظاهرة إسلامية أصيلة، مبنية على أسس إسلامية صحيحة مع السماح ببعض التأثيرات من البيئات المختلفة، شأنه فى ذلك شأن العلوم الإسلامىة الأخرى، التى تأثرت بالبيئات الثقافية المختلفة التى مرت بها.

أما فيما يخصُّ المستشرقين، أى الباحثين الغربيين الذين اهتموا بدراسة الحضارة الإسلامىة فأجادوا فيها، فيختلف موقفهم من التصوف الإسلامى من جيل لآخر ومن تيار فكرى لآخر، بل من مستشرق لآخر. نعرض هنا بإيجازٍ بعضًا من أهم آراء هؤلاء المستشرقين حول قضية مصدر التصوف الإسلامى<sup>(1)</sup>.

فالجيل الأول منهم، أى الذين عاشوا منذ القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين، رأوا أن التصوف الإسلامى نشأ من مصادر أجنبية لا من داخل الإسلام كما يدعى الصوفية. ويأتى قولهم هذا على أساس عدة أسباب من أهمها تأثرهم بفلسفة التاريخ للفيلسوف الألمانى الشهير هيغل (G. W. F. Hegel) (ت 1831) التى تقوم على نظرية واضحة بمركزية الحضارة الأوروبية كالمرحلة الأخيرة لمظاهر الروح المطلق فى التاريخ البشرى.

(1) النفتازانى، مدخل، ص 25-37؛ آنا ماري شميل، الأبعاد الصوفية فى الإسلام وتاريخ التصوف، ترجمة محمد اسماعيل

ورضا حامد قطب، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، 2006، ص 11-17.

فالبعض منهم، من أمثال ثولوك (F. D. A. Tholuk)، دوزى (R. Dozy)، بالمير (E. H. Palmer)، هورتن (Max Horten)، وهارتمان (R. Hartmann)، زانير (R. C. Zaenher) وغيرهم، بحثوا عن مصدر التصوف الإسلامى فى الأديان الهندو- آرية (Indo-Aryan أى من أصل هندى- فارسى)، وهذا لأنهم رأوا أن هناك عدة أوجه من التشابه بين الفكرة الوحّدوية الهندوسية (عن الموجود الحقيقى الأسمى الأوحد وهو المبدأ المطلق للكل والمسّمى عندهم ب- برهمان) وفكرة بعض الصوفية وخاصة أصحاب مدرسة وحدة الوجود من أمثال محى الدين بن العربى (ت638هـ/ 1240م) وابن سبعين (ت668هـ/ 1269م أو 669هـ/ 1271م) وغيرهما. فهؤلاء الصوفية قالوا بنظرية فلسفية وحدوية تشبه إلى حد كبير النظرية الوحّدوية الهندوسية، وما يتشابه بها، والتي تبدو للوهلة الأولى بعيدة جدًا عن المفهوم المتداول للتوحيد القرآنى المؤسس على تمييز صارم بين الخالق والمخلوق. ويلاحظ التفتازانى فى هذا الصدد أن التأثير المباشر بالفكر الهندوسى لم يظهر فى العالم الإسلامى إلا متأخرًا، خاصة مع ما كتب أبو ریحان البيرونى (ت440هـ/ 1048م أو 442هـ/ 1050م) عن عقائد أهل الهند.

ومنهم، من أمثال أوليرى (Delacy O'Leary)، نيكلسون (R. A. Nicholson)، براون (J. P. Brown) من قال بالمصدر اليونانى للتصوف الإسلامى، وخاصة بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة. وهذا لأنهم رأوا تشابهًا كبيرًا بين الفلسفة الأفلاطونية المحدثة وفكرة بعض الصوفية الذين تكلموا عن الواحد والكلمة (Logos)، وعن الفيض وصدور العالم من الواحد، وعن مراتب الكون، .. إلخ. وهنا أيضًا يلاحظ التفتازانى أن التأثير المباشر بالفكر الفلسفى اليونانى لم يظهر فى العالم الإسلامى إلا متأخرًا عند ترجمة الأعمال اليونانية إلى العربية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين، وكان التصوف قد قطع حينذاك شوطًا أساسيًا فى تكوينه.

ومنهم، من أمثال جولدزيهر (I. Goldziher)، فون كريمر (A. Von Kremer)، دوزى (R. Dozy)، آسين بلاثيوس (Asin Palacios)، أوليرى (D. O'Leary)، نيكلسون (R. A. Nicholson)، وتور اندرى (Tor Andrae)، وغيرهم، من قال بالمصدر النصرانى أو المسيحى، أو بالثقافات الدينية الأخرى مثل الثقافة اليهودية وغيرها التى كانت منتشرة فى الشرق الأوسط قبل العصر الإسلامى. فيرى أنصار هذا الرأى أن فكرة الحب الإلهى التى ظهرت مبكرة عند بعض الصوفية المسلمين قد تكون نتيجة لتأثرهم بأفكار مسيحية متشابهة، بل هناك الكثير من أقوال الصوفية فى حياة الزهد والتقشف والتسك نجد ما يقابلها فى أقوال الرهبان المسيحيين، فهناك كتاب مشهور فى أقوال الرهبان كان مذكورًا عند الصوفية فدخل فى التراث الصوفى العام. ونحن نعلم أن الرهبانية المسيحية كانت معروفة لدى العرب قبل الإسلام إذ إنها كانت منتشرة على تخوم الصحراء السورية وفى صحراء سيناء وحتى فى داخل جزيرة العرب. وكذلك يُروى فى سير بعض الزهاد الأوائل، من أمثال مالك بن دينار (ت 130هـ / 47-748م أو 131هـ / 48-749م) وإبراهيم بن أدهم (ت 161هـ / 77-778م) وغيرهما، أنهم كانوا يزورون أديرة الرهبان المسيحيين، مما يدل على أنهم كانوا على معرفة جيدة بالممارسات الزهدية لهؤلاء الرهبان.

فمما سبق من الكلام يبدو جليًا أن قضية مصدر التصوف الإسلامى قضية معقدة للغاية وهى تحتاج إلى معالجة علمية حكيمة بعيدة عن المواقف الأيديولوجية المسبقة، وإلى بحث جادّ عن الوقائع التاريخية الصحيحة كما ترد فى المصادر الموثوق بها. ومن الملاحظ أن الأغلبية العظمى من المستشرقين المتأخرين، ابتداءً من المستشرق الفرنسى العظيم، لويس ماسينيون (Louis Massignon, d. 1962)، وخاصة بعد نشره كتابه المشهور "دراسة فى مصادر القاموس التقنى للتصوف

الإسلامي" (باريس، 1922م)<sup>(1)</sup>، فقد أجمع هؤلاء المستشرقون على أن المصدر الأول والأصلي للتصوف الإسلامي يرجع إلى منبع إسلامي، وعلى رأسه القرآن الكريم. ونذكر بعضاً من أبرز أسمائهم من أمثال نيكلسون ( R.A. Nicholson, d.1945)، خاصة في مرحلته المتأخرة<sup>(1)</sup>، وجون آرثر آبري ( J. A. Arberry, d.1969)<sup>(2)</sup>، وأنا ماري شيميل (Annemarie Schimmel, d. 2003)<sup>(3)</sup>، صاحبة دراسة عميقة في التصوف الإسلامي عنوانها "الأبعاد الصوفية في الإسلام"، وأليكسندر كنيش (Alexander Knysh)، صاحب أحدث وأجود دراسة في تاريخ التصوف<sup>(4)</sup>. وهذا مما يجعلنا نتعجب كل العجب عندما نقرأ بعد في الكثير من الكتب العربية هجوماً شرساً، واسع النطاق وشديد اللهجة، ضد المستشرقين عامة، وكأنهم، في رأى هؤلاء المعارضين، ليسوا إلا جملة من المتعصبين العمى لا غرض لهم إلا التآمر ضد العالم الإسلامي عامة، والدين الإسلامي بوجه خاص.

وخلاصة القول، فهناك الآن إجماع واسع بين المستشرقين المُحدثين على أن التصوف الإسلامي له أصالة واضحة في الدين الإسلامي أولاً، دون إنكار بعض تأثيرات من مختلف الثقافات التي عاصرت التاريخ الإسلامي. هذا ما يُقرّه أيضاً الدارس المصري المعروف، أبو الوفا التفتازاني، الذي تتلمذ على يد المستشرق

---

(1) Louis Massignon, *Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane*, Paris, Cerf, 1999 (1ed. Geuthner, 1922; Vrin, 1954).

(1) Reynold Alleyne Nicholson, *Studies in Islamic Mysticism*, University Press, Cambridge, 1989 (1ed. 1921); *The Mystics of Islam*, Arkana, London, 1989 (Routledge and Paul Kegan, London, 1975; 1ed. 1914).

(2) Arthur John Arberry, *Sufism. An Account of the Mystics of Islam*, Allen & Unwin, London, 1950.

(3) Annemarie Schimmel, *Mystical Dimensions of Islam*, The University of North Carolina, Chapel Hill (North Carolina), 1975.

(4) وقد ترجم إلى العربية تحت عنوان: الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، سبق ذكره. Alexander Knysh, *Islamic Mysticism - A Short History*, Brill, Leiden, 2000.

الفرنسي العظيم لويس ماسينيون، في دراسته عن التصوف الإسلامي حيث يتخذ موقفاً متوازناً من هذه القضية بين الأصالة والتأثر:

"ولذلك فإن من الإنصاف العلمي القول بأن مذاهب الصوفية في العلم ورياضاتهم العملية تُرَدُّ إلى مصدر إسلامي. إلا أنه بمرور الوقت وبحكم التقاء الأمم واحتكاك الحضارات تسرب إليها شيء من المؤثرات المسيحية أو غير المسيحية، فظن بعض المستشرقين خطأ أن الصوفية أخذوا أول ما أخذوا عن المسيحية"<sup>(1)</sup>. وعلى هذا الأساس يذكر التفتازاني في دراسته القيمة عن التصوف الإسلامي عدداً كبيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تمثل المصدر الأول والدافع الأساسي لحركة التصوف منذ نشأته الأولى، فليطلب ذلك هناك<sup>(2)</sup>.

فهذا موقف مبني على الكثير من العقلانية والاعتدال، وقد صار منذ وقتِ الموقف السائد عند الأغلبية العظمى من المستشرقين المعاصرين. فحسب ما يرد في دراسات علمية جادة بخصوص قضية مصدر التصوف الإسلامي فمن الإنصاف العلمي أن يُثَبِّت في آن واحد الأصالة الإسلامية لظاهرة التصوف مع تأثره عبر الزمان والمكان بالتيارات الدينية المختلفة التي تعامل معها، شأنه في ذلك شأن سائر العلوم الإسلامية الأخرى مثل علم الكلام والفلسفة والعلوم الطبيعية.. إلخ. ونحن نعلم مدى تأثير الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى التي تعاملت معها، وخاصة بالحضارة اليونانية عبر فلسفتها التي أصبحت الفلسفة المتداولة بين المفكرين المسلمين. وعلى كل حال فيجب أن نميز هنا بين المصدر والتأثر. فالمصدر هو الأصل والتأثر هو الفرع. وفي هذا الصدد يجب الانتباه إلى أن التأثر ليس عيباً أو نقصاً، كما قد تتصوره بعض العقليات المتعصبة الضيقة الأفق، إنما التأثر خاصية عامة لكافة الحضارات البشرية وهو علامة حيوية لتلك الحضارات التي تتفاعل ككائنات حية متحركة وليس ككائنات متحجرة جامدة. فعلى مدى التاريخ تقابلت

(1) التفتازاني، مدخل، ص 29-30.

(2) التفتازاني، مدخل، ص 37-55.

الحضارات البشرية وتفاعلت بعضها بعض فتبادلت أفكارها وأعمالها، فكان هذا التبادل بلا شك من أهمّ العناصر لنموها وتطورها وازدهارها. فالحضارة الإسلامية أيضا شاركت مشاركة عظيمة إيجابية فعالة مع سائر الحضارات فى الحركة الحضارية الإنسانية العامة عبر التاريخ. إذن، فالفاعل والتأثر والتبادل من العناصر التى تُثرى ولا تُفقّر الحضارات البشرية، فهى عناصر مرجوة وليست مرفوضة فيها.

### 1-3: مكانة التصوف فى الإسلام

تأتى الإجابة على هذا السؤال فى عديد من المؤلفات والدراسات لأهم الباحثين فى هذا المجال. فهناك إجماع شبه كلى بين الدارسين للتصوف الإسلامى على اعتباره البعد الروحى من الدين الإسلامى. فقد عَنَوَنَ الدارس المصرى الشهير، محمد مصطفى حلمى (ت1969م)، كتابه فى التصوف بعنوان واضح الإشارة "الحياة الروحية فى الإسلام"<sup>(1)</sup>. وهناك دارس مصرى جليل آخر، هو أبو العلا عفيفى (ت1964م) الذى عنون كتابه فى التصوف "التصوف، الثورة الروحية فى الإسلام"<sup>(2)</sup>. والمقصود عندهما وأمثالهما من الدارسين أن التصوف الإسلامى يمثل البعد الروحى للدين الإسلامى ومعناه العميق. فىقول أبو الوفا النفتازانى، فى مدخله إلى التصوف الإسلامى: "ومن هذا يتبين لك أن التصوف فى الإسلام، كعلم دينى، يختص بجانب الأخلاق والسلوك، وهو روح الإسلام"<sup>(3)</sup>. إذن، فإن التصوف يمثل فى رأيه "روح الدين الإسلامى"، وهذا موقف صارم وجرىء جدًا. وكذلك عنونت الباحثة الألمانية الشهيرة، آنا مارى شيميل (Annemarie Schimmel)، كتابها القيم فى التصوف الذى يعتبر من أبرز الدراسات فيه: "الأبعاد الصوفية (mystical) فى الإسلام"<sup>(4)</sup>. ونحن نرى أن هذا هو الرأى الأعم والأصح حول مكانة التصوف فى الإسلام، يؤيده الكثير من أبرز الدارسين من العلماء المسلمين والباحثين

(1) محمد مصطفى حلمى، الحياة الروحية فى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984، ط2.

(2) أبو العلا عفيفى، التصوف: الثورة الروحية فى الإسلام، القاهرة، 1963.

(3) النفتازانى، مدخل، ص 7.

(4) شيميل، الأبعاد الصوفية، سبق ذكره.

المستشرقين، وإن لا يخلو هذا المجال من الذين يعارضونه: فكل واحد يشرب من مشربه، فالروحاني يشرب من الروح، والحرفي يقف عند الحرف.

وينبغي هنا أن نذكر ملحوظة مهمة للباحث العراقي الأب اليسوعي بولس نويبا (Paul Nwyia, d. 1980) بخصوص مكانة الصوفية في الإسلام. فإنه يعترف للمتصوفة بأفضال عظيمة، إذ إنهم أنشأوا بخراتهم الذاتية والممارسات الحياتية لغةً خاصة لهم، وهي لغة حية مليئة بمعانٍ عميقة ذات صبغة ذاتية ملموسة، بعيدة عن البلاغة الشكلية السائدة لدى الكثير من الأدباء العرب. فختم الأب نويبا قوله مُثبِتًا أنه: "بفضل المتصوفة وُلدت لغة جديدة في لسان العرب، ألا وهي لغة الخبرة الروحية الذاتية"<sup>(1)</sup>.

وأخيرًا، فمهما اختلفت الآراء وتضاربت المواقف إزاء هذه الظاهرة التاريخية المهمة، أى التصوف الإسلامي، فلا أحد يمكنه إنكارها أو تجاهلها، وإلا فقد أهمل تراثًا حضاريًا عظيمًا من الحياة والفكر والفن أثرى التاريخ الإسلامي تراثًا متميزًا. إذن، فالتصوف الإسلامي يجب اعتباره جزءًا أساسيًا لا يتجزأ من تاريخ الإسلام وحضارته، وله فيه مكانة عالية جلية على شتى المستويات من الدين والفكر، والفن والعمل.

2- التصوف الإسلامي والحوار الديني  
يعتبر التصوف الإسلامي ثروة روحية عظيمة ليس فقط على مستوى الحضارة الإسلامية، بل على مستوى الحضارات العالمية جمعاء، لذلك فهو مؤهل لكي يكون مجالاً مفتوحًا للتلاقح بين الحضارات والأديان العالمية. والواقع أن الحركة الروحية في الإسلام، أى التصوف، تجد موازيات عديدة في حركات روحية مماثلة في سائر الأديان العالمية. وهذا لأن كل دين منها يحتوي في داخله على بُعد روحي أو صوفي (mystic)، كما يُسمّى في اللغات الغربية. وقد أشار الكثير من

(1) Paul Nwyia, *Exegèse coranique et langage mystique*, Dar al-Machreq, Beirut, 1970, p. 4.

الباحثين إلى أن هناك عددًا وافراً من الموازيات المدهشة العجيبة بين التيارات الروحية العالمية المختلفة. إذن، فالتصوف الإسلامى لا يأتي يتيماً فى تاريخ البشر، إنما يأتي فى انسجام واسع وتناغم عجيب مع التيارات الروحية الدينية الأخرى. هذا مما يجعلنا نبحث عن المشترك العام لتلك التيارات الروحية العالمية وأن نوضح، ولو قليلاً، المصدر والماهية لذلك البعد الصوفى أو الروحى الذى يبدو متأصلاً فى صميم الكائن البشرى، بقدر ما هو كذلك، عبر الزمان والمكان.

## 2-1: الإنسان كائنًا متسائلًا

إن الخبرة الإنسانية العامة تُثبت بكل وضوح أن الكائن البشرى تحت كل سماء وفوق كل أرض كائنٌ فى حركة دائمة لا تنتهى أبداً. وهذا لأنه يجد نفسه مُلقًى فى سلسلة لا متناهية من التساؤلات أو قُلْ من الألغاز حول معنى حياته ووجوده. فقد أقلقت تلك التساؤلات ولا تزال تُقلق القلب البشرى فى أعماقه، فى ماضيه وحاضره: ما الإنسان؟ ما معنى حياته وما غايتها؟ ما الخير وما الشر؟ ما مصدر الآلام وما غايتها؟ ما الطريق الذى يقود إلى السعادة؟ ما الموت وما مصير الإنسان بعد الموت؟ هل هناك حساب وجزاء؟ وكيف ذلك؟ وأخيراً، ما السر المطلق المتعالى على الكل حتى يتعذر وصفه والذى يحيط بوجودنا من كل جانب والذى منه نستمدُّ أصل وجودنا وإليه نصير؟ وهلم جراً من مثل هذه التساؤلات والإشكاليات الوجودية التى تشكّل صميم الكائن البشرى بقدر ما هو إنسانى. والواقع أنه إن وُجد هناك كائن بشرى لا يطرح على نفسه مثل تلك التساؤلات فسوف يتوقف عن كونه إنساناً فينحدر إلى مستوى الآلات الروبوتية.

إذن، فالكائن البشرى يبدو أنه كائن متسائل فى جوهره. فهو يتساءل قبل كل شىء عن معنى وجوده وحياته، ولكن عبر ذلك فتساؤله يتسع نحو أبعاد أخرى حتى يشمل معنى الوجود بكليته. وهذان التساؤلان متصلان بشكل وثيق، حيث إنه لا

يمكن الإجابة على أحدهما دون الإجابة على الآخر. فهذا جانبٌ أساسيٌّ في الكيان البشري، قد وجد استيضاحًا مستفيضًا في التفكير الفلسفي واللاهوتي عبر التاريخ. وفي ضوء تلك التبصرات يبدو لنا أن الإنسان ليس فقط "الكائن الناطق (logikòs)"، كما قال أرسطو، إنما الإنسان، أى الكائن البشري جماعةً وفردًا، هو في جوهره "الكائن المتسائل" بامتياز، أو قُلْ "الكائن في بحث مستمر". فإن البحث المستمر والتساؤل المتواصل والإشكالية المتجددة أكثر فأكثر حول معنى وجوده ووجود الكل المحيط به، هى فى الجملة الملامح الجوهرية التى تشكل الكائن البشري بقدر ما هو "كذلك" أى إنسانى، وهى تميزه عن سائر الكائنات، سواء الأدنى منه، مثل الحيوانات والنباتات والجماد، أو الأرقى منه، مثل الملائكة. إلا أن نظرة أعمق فى تلك الكائنات عامة تكشف لنا أن هناك أيضًا، فى جوهر كل كائن، يدور سؤال أنطولوجى جذرى وحتمى، هو السؤال أو قل البحث عن الأصل والأساس للوجود، أى عن "المطلق"، الذى هو الأصل الأول والهدف الأخير لكل موجود: فالكل منه صادر وإليه متوجّه. إذن، حسب التبصرات الفلسفية الأكثر عمقًا واتساعًا، فالخليفة كلها تبدو فى حركة دائمة متواصلة تبدأ من "المطلق" وإليه تعود.

إذن، فالإنسان بخلاف الكائنات الأخرى يُثبت ذاته على أنه الكائن السائل المتسائل بلا انقطاع. إنه الكائن الذى عقب كل إجابة يطرح أسئلة أخرى متجددة: إنه الكائن المتسائل بامتياز. والواقع أنه يتحرك دائمًا تحت دافع سؤال مُلح وفى بحث دائم عن معنى وجوده ووجود الكائنات المحيطة به. وهذا على الأقل ما دام إنسانًا... فمن يدري؟ ربما سيأتى يومٌ يتوقف فيه الإنسان عن كونه إنسانيًا. ربما يختزله الطغيان التكنولوجى المتزايد إلى مجرد آلة للإنتاج والاستهلاك دون أى أفق يتطلع به إلى ما وراء عالم التلاعب التكنولوجى. ربما ستتحقق حينذاك المقولة التى أرَدَّدها منذ وقت: "إن الإنسان صنع الآلة ثم تحوّل على صورتها ومثالها"... إن لم يكن قد تحوّل إلى عبدٍ لها. حينذاك سيتوقف الكائن البشري عن كونه "إنسانيًا"، كى

يتحول- ومن يدري؟- ربما إلى "روبوت" مُتقَنَ يعمل وينتج ويستهلك في إطار نظام ريبوتىّ شاملٍ مُحكَّمٍ مُطلقٍ حيث أصبح وجوده مجردَ وظيفةٍ عمليةٍ ريبوتيةٍ لا غير، فيمكن تبديلها بكل سهولةٍ بغيرها من الوحدات الروبوتية.

## 2-2: التساؤل هبة إلهية

إلا أن هذا التساؤل الإنسانى المتأصل فى كيانه، إذا سُبر فى العمق، يكتشف أنه فى الحقيقة دعوة إلهية موضوعة فى صميم قلب الكائن البشرى، بل يمكننا أن نعتبره العلامة الأولى لحضور الله فى الوعى الإنسانى، أو قل فى قلب الإنسان، ومن ثم فهو أولُ كَشْفِ الله عن ذاته للكائن البشرى. فالكائن البشرى يتساءل، لأنه يشعر فى أعماقه بأنه "مسؤول" عن حياته من طرف مصدر وأساس وجوده. والواقع أن الإنسان يكتشف أنه "مسؤول" لأنه واع كل الوعى بأن عليه وجوب الإجابة على وجوده. وهذا لأن لديه الوعى العميق بأن وجوده ليس "له"، كملكٍ مطلقٍ تحت مطلقٍ تصرفه، إنما يشعر الإنسان بأن هذا الوجود أُعطى له كدعوةٍ وواجب، ومن ثم كمسؤولية. ففى أعماق تساؤله يدرك الإنسان (حتى ولو بشكل غير واضح) أنه فى حضرة "أحدٍ ما" يبادره بالسؤال لأنه بعينه هو الذى أعطاه هبة الوجود. وبالإضافة إلى هذا، فالإنسان يشعر بأن هذه هبة مجانية، ولكن فى الوقت نفسه هى واجبٍ حتمى لا مفرّ له منه. إن الكائن البشرى يكتشف ويعى فى أعماقه بأنه ملزمٌ بوجوده، فعليه أن يحقق وجوده وهو مسؤول عن ذلك. وهذا إلى حدّ أنه لو قرّر أن يوقّف ذاته عن الوجود ماحياً إياها بالكلية مادياً أو معنوياً عن وجه الوجود، فإن اختياره هذا فى حد ذاته يمثل إجابةً على الدعوة الإلهية المانحة له الوجود لكى يُحقق معناه المطلوب منه. قد تكون هذه إجابةً سلبية، ولكنها دائماً إجابةً تجعله مسؤولاً عنها، ومن ثم قابلاً لتحمل تبعاتها.

ومن هذه التأمّلات حول الوجود البشرى يتّضح لنا أن السؤال والتساؤل، والبحث والسعى من السمات الأساسية فى تكوين الكائن البشرى من حيث هو

"إنساني"، وهي في الوقت نفسه تمثل دعوة إلهية أصيلة موجهة إليه ومرتسخة في أعماق كيانه: إنها دعوة إلى المسؤولية والاختيار على مستوى الوجود. هذه هي الخلفية التي على ضوءها يجب أن تُفهم حقيقة الدين والأديان، وخاصة حقيقة المسيرات الروحية فيها. والواقع أن الأديان على اختلافها تمثل، بل تريد أن تكون إجابة على تلك التساؤلات الأساسية الجذرية التي تخترق الوجود الإنساني بكليته. فالجدير بالذكر أن هذه الفكرة عن الإنسان "ككائن متسائل وفي بحث دائم عن معنى وجوده"، تظهر في الكثير من الأساطير والحكايات الواردة في العديد من الثقافات والديانات في شتى شعوب العالم. وهذه، بلا شك، علامة واضحة على أن هذه التساؤلات الوجودية تنبع من أعماق الكيان البشري المشترك بين جماعات البشرية كلها، وهي ترجع آخر الأمر إلى مُوجدها الأول والمطلق، وهو الله. لذلك تمثل تلك التساؤلات الوجودية الأرضية الأولى والأساسية للتلاقى والحوار فيما بين الأديان والثقافات المختلفة.

## 2-3: التصوف في الأفق الوجودي الإنساني

الإنسان، إذن، وهو الكائن المتسائل بامتياز، في بحث دائم دؤوب عن معنى وجوده. ولا يجد إجابة مقنعة على تساؤلاته هذه إلا في الخبرة الدينية الصحيحة، وخاصة فيما يُعتبر جوهر هذه الخبرة الدينية، وهي الخبرة الروحية الصوفية (mystic). وهذا لأن الإنسان من خلال الخبرة الصوفية يتقابل في أعماق ذاته مع المصدر الأول لوجوده، وهو في الوقت نفسه هدفه الأخير، هو المطلق، الله. فينبغي لنا أن نتوقف قليلاً لتوضيح الأمر.

أ. التصوف كخبرة بالهوية الإنسانية (human identity)

إن المصطلح "صوفي" (mystic) مع كل مشتقاته قد تم ابتذاله على نطاق واسع في الثقافة التسويقية المتداولة حالياً والمفروضة على الجماهير عبر شتى

الوسائل الإعلامية. فقد تم اختزال هذا المصطلح في أغلب الأحيان كعبارة عن كل ما هو شاذُّ غريبٌ، غير منطقي وتافهٌ على مستوى العرض السوقي الاستهلاكي في عالمنا المُعوَّلَم. لقد وصلنا إلى حد أننا كثيراً ما نسمع الحديث بصفاقة مدهشة عن تصوُّف (mysticism) يخص بعض الأشياء التافهة مثل العطور والسيارة وكرة القدم والموضة، وهلمَّ جرَّاً من المنتجات التسويقية المعروضة عبر الوسائل الإعلامية العامة. وكذلك، يُستخدم مصطلح "صوفي" (mystic) للتلميح إلى أي نوع من الظواهر الغيبية الغريبة وغير الطبيعية أو غير المنطقية من أمثال الرؤى والأحلام، والأحداث الخارقة للعادة، وأشياء عديدة من هذا القبيل. من ثمَّ، فهناك حاجة ماسَّة إلى إرجاع هذا المصطلح إلى معناه الأصلي الحقيقي العميق. وفي هذا الصدد يمكنني هنا أن أتلمَّس فقط بعضاً من الملامح العامة لتوضيح المعنى الحقيقي للفظ "صوفي" (mystic)، دون تكرار ما قيل في موضع آخر.

من المعروف أن مصطلح (mystic) في اللغات الغربية، (المقابل لمصطلح "صوفي" في العربية)، مشتقٌّ من اللفظ اليوناني (myô) بمعنى "صمت"، لاسيما بصدد خفايا الأسرار الدينية (mysteria) الممارسة وقتذاك في بعض الجماعات الدينية اليونانية. أما فيما بعد فقد أُستخدم هذا اللفظ في اللغة الدينية للإشارة إلى الحقيقة الأكثر عمقاً في صميم سرِّ الإنسان، وهي أيضاً الأكثر سرية وخفاء فيه، وغير معروضة ولا متاحة للفضول المتطفَّل والاهتمامات السطحية التافهة لعامة الجماهير. وكذلك أُستخدم هذا اللفظ للإشارة إلى الحقيقة العالية، أي السر الإلهي (divine mystery) المطلق الذي يفوق كل إدراك بشري فلا أحد يستطيع الاطلاع عليه. إذن، فاللفظ "صوفي" (mystic) يشير إلى ما هو أكثر حقيقةً وسراً في صميم قلب الإنسان، حيث يتقابل هذا مع المطلق ومعه يحتفي بلقاء فوقاني يُحوِّله في صميم كيانه. إن الاهتمام بهذا البعد العميق للكائن البشري والرغبة الصارمة في

تحقيقه حتى فى الحياة اليومية، بل المراهنة عليه بالحياة نفسها كلياً، كل هذا يعنى الدخول فى البعد الصوفى.

والحقيقة أن الخبرة الصوفية تمثل قلب الخبرة الدينية وبالتالي أيضاً صميم الخبرة الإنسانية ذاتها. فالتصوف ليس حديثاً كلامياً مثقفاً مجرداً حول الله وقضاياه النظرية، كما هو الأمر فى العلوم الدينية الأخرى مثل علم الكلام والفقهاء واللاهوت.. إلخ. إنما التصوف (mysticism) لقاءً حياً وخبرة ملموسة مع من هو الأساس الأول والغاية القصوى بل والهدف الأخير للوجود البشرى ووجود الكون كله، ومن ثم فهو المعنى الحقيقى للوجود بكليته، هو المطلق، الله. وإزاء هذا السر المطلق يكشف الإنسان هويته الأعمق، كما يكشف ويخبر أن هويته هذه يشاركه فيها غيره من البشر، وهى جذور الأحوال الإنسانية الأصلية.

ب. التصوف كخبرة بالسر المطلق (Experience of the Absolute Mystery)

إن الخبرة الصوفية تكشف على أنها خبرة درامية فى أساسها. ففيها تتلخص وتتجسد الدراما الجذرية الراسخة فى صميم الكائن البشرى الذى، كما وصفناه أعلاه، هو الكائن المخلوق للتسامى أى المدعو إلى اللقاء مع أساسه المطلق، السر المطلق، الله. إلا أن هذا المطلق، وهو غاية رغبات القلب البشرى وبغية رحلة حجّه عبر الزمان، يكشف فى آخر الأمر أنه مطلق الضرورة، فلا غنى عنه للإنسان فى وجوده، إلا أنه فى الوقت نفسه مطلق الاستقلال عن الإنسان استقلالاً كلياً لا تنازل فيه. فمن ثم، فلا يمكن استقباله إلا كهبة مجانية أو نعمة خالصة خارجاً عن نطاق التصرف البشرى بأجمعه. والواقع أن الإنسان لا يستطيع لقاء المطلق إلا هناك حيث المطلق ذاته يجعل اللقاء مع نفسه ممكناً، فليس هناك من سبيل إليه إلا هو. وعلى هذا الأساس، يمكن تلخيص دراما البحث الإنسانى فى الخطوط التالية: إن الإنسان هو ذلك الكائن الذى يتحرك فى بحث دائم ملح عن المعنى العميق والحقيقى لوجوده، أى عمّا هو أكثر ضرورة له فلا غنى له عنه، إلا أنه لا يستطيع الوصول إلى

تلك الغاية الأسمى ولا بلوغ ذلك الهدف الأعلى إلا من خلال هبة مجانية أو نعمة خالصة، وإلا فليس له إليه من سبيل. هذه هي الخبرة الأساسية مع المطلق التي تحصل في صميم كل خبرة صوفية (mystic) حقيقية، والتي تشهد بها المعاناة الروحية لكل صوفى أو إنسان روحي حق في شتى الأديان العالمية. ولا شك أن اكتشاف هذا البعد الإنساني والديني المشترك بين مختلف الخبرات الروحية على مستوى سائر الأديان يمثل حقيقة مهمة تملأ قلب الباحث حكمة وسعادة لا يفى بهما وصف، إذ إنها خبرة عميقة تكشف عن وحدة الجنس البشرى وعن واحدة منبعه الأخير، وهو المطلق، الله.

ومن ناحية أخرى، فالخبرة الصوفية تحملنا إلى مستوى يتجاوز كل صيغة عقلانية منطقية محددة. فقبل كل شيء نتعامل هنا مع خبرة، أى مع حدث وجودى ذاتى، يدخل الإنسان من خلاله فى اتصال بسر الوجود الأسمى، وهو السر الإلهى. وفى هذا اللقاء، كما يبدو بوضوح من شهادة المتصوفة (mystics) من كل الأديان، قد تحدث أشياء، من "ما لا عين رأت ولا أذن سمعت"<sup>(1)</sup>، إذ إن الصوفى عبّر خبرة عميقة كهذه يتحول فى أعماق كيانه تحولاً جذرياً. فالمتصوفة الذين حصلت لهم خبرة حقيقية مع الله بوصفه المطلق، اختبروا فيها أن كل الحدود التى تحدّد وتكبل وجودنا البشرى العادى المرسوم فى إطار الزمان والمكان، قد تم تجاوزها بشكل ما. وهذا لأن الخبرة الصوفية فى أساسها لقاء مع الحقيقة المطلقة، وحقيقة كهذه لا يمكن أن تصبح ملكاً أو حكراً لأى كائن، كما أنها لا يمكن حصرها فى حدود ثقافة بشرية معينة. فعلى مستوى الخبرة الصوفية "الروح فقط هو القانون"، يقول الصوفى المسيحى القديس يوحنا الصليب (John of the Cross, d. 1591)، وعلى هذا المستوى يتحلّى الإنسان بـ "الصفات الإلهية"، كما يقول المتصوفة المسلمون. فعلى أية حال فالمتصوفة يتكلمون بلغة لا يمكن فهمها إلا لمن ذاق مذاق خبرتهم تلك، حسب قولهم "من ذاق عرف"، وشرب من عين مشربهم فيما وراء الصيغ الشكلية

(1) سبق تخريجه.

العقلانية. فعلى هذا المعنى تأتي العبارة الشهيرة للصوفي محمد عبد الجبار النفري (ت354هـ/ 965م أو 366هـ/ 976م) في كتابه الشهير "المواقف والمخاطبات"، "كلّما اتّسعَتِ الرّؤية ضاقَتِ العبارة"<sup>(2)</sup>. إذن، فإنّ الخبرة الصوفية في واقع أمرها تَقْصِدُ، بل يجب أن تكون في المقام الأول خبرة وجودية حية ملموسة بالحقيقة المطلقة، وإلا فلن تكون صوفية البتة.

إذن، فالخبرة الصوفية، وهي قلب كل خبرة دينية، يجب أن تصير أيضاً بالضرورة الموضوع المميّز للحوار بين الأديان بل الأساس للحوار بين الثقافات والحضارات أيضاً. وهناك عدد من المجالات المهمة ينبغي بل يجب أن يُجرى فيها الحوار على مستوى الروحانيات الدينية العالمية لصالح البشرية كلها. نذكر من أهمها: أولاً، قضية هوية الإنسان، فقد رأينا أن الثقافة التسويقية المسيطرة في عالمنا المُعوّلم تمثل خطراً جسيماً للحفاظ على هوية الإنسان كإنسان. ثم هناك قضية كبرى أخرى قد أصبحت الآن من المهام الأولى للإنسان المعاصر، هي قضية البيئة التي صارت في السنوات الأخيرة في تدهور خطير قد يذهب ببقاء البشرية نفسها. وأخيراً، فكل خبرة روحية صوفية تدور، كما رأينا أكثر من مرة، حول سر الوجود الأسمى المطلق، وهو سر يفوق كل إدراك بشري، وهو الله. وهنا، إزاء السر المطلق يمتد مجال واسع للتبادل بالمجاهدات والمكاشفات والخبرات الروحية التي تعبّر عن تحقيقات روحية متنوعة مفيدة لكل لكي نسير كلنا معاً نحو من هو مصدر وجودنا الأصلي وهدفه النهائي. فتبادل الخبرات الروحية على هذا المستوى يمثل، بدون شك، أكبر نعمة يمكننا أن نتشارك فيما بيننا نحن البشر. والرجاء أن يصير هذا الحوار الروحي أساساً متيناً يضمن للبشرية جمعاء التعاون في مواجهة قضاياها الوجودية والتعايش بين أفرادها وجماعاتها في الأخوة والسلام والسعادة.

(2) محمد عبد الجبار النفري، الأعمال الصوفية، تحقيق سعيد الغانمي، دار الجمل، ألمانيا، كولونيا، 2007، ص105.

أ.د. الأب جوزیپی سكاتولین

### 3- التصوف فى الوقت الراهن

قدم التاريخ الإسلامى العديده والعديد من الشخصيات الهامة فى التصوف. وقد أسهمت هذه الشخصيات فى إثراء البعد الروحى لجوهر الدين الإسلامى، حيث أخذ هؤلاء على عاتقهم الإقبال على الدين والزهد فى الدنيا وصفاء العلاقة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى. وهكذا نشأت تلك الحركة الروحية "التصوف" وتطورت داخل الإسلام ابتداء من القرنين الأول والثانى الهجريين بحركة الزهد إذ إنه لم يكن هناك قطر من الأقطار الإسلامية خال من ممثلين لتلك الحركة (المدينة، البصرة، الكوفة، خراسان، مصر..). واستمرت هذه الحركة الروحية فى التطور طوال التاريخ الإسلامى.

أما عن الوقت الحاضر، فيفرض علينا السياق الثقافى السائد فى العالم الإسلامى النظر إلى التصوف الإسلامى بصورة واقعية معقولة، فعندما تُذكر كلمة "تصوف" فى الأوساط الثقافية ينظر إليها بشيء من الريبة والشك وربما ربطها البعض بالتخلف والشعوذة، وربما أخرجها البعض عن دائرة الإسلام، وربما اعتبرها البعض موروثاً قديماً لا قيمة له ولا حاجة لنا إليه الآن. والغريب أن هذه النظرات قد تناست العديد من الأمور، أهمها: أنها تناست إسهام التصوف فى كافة المجالات الثقافية التى قدمها المتصوفة المسلمون على مدار العصور الإسلامية، كما تناست دور التصوف فى نشر الإسلام فى شتى بقاع العالم. وتناست أيضاً دور التصوف المهم من الناحية الأخلاقية والروحية.

والآن ونحن نعيش فى عالم أصبحت تسيطر عليه المادية المتطرفة، وظهرت فيه نماذج من التيارات الدينية المتشددة، وظهر فيه الاهتمام بالشكليات دون الجوهر؛ فليس من الغريب أن يُهمَّش التصوف وسط هذه الماديات التى أصبحت مع الأسف معيار القيم لدينا، ووسط التيارات الدينية المتطرفة التى باتت تُسخر

وتستغل كافة المشاعر الدينية لدى البسطاء لصالح أغراضها السياسية، والعديد من السلبيات الأخرى. فى ظل هذه الظروف الصعبة يظهر لنا مدى احتياجنا إلى التصوف الإسلامى.

ويمكننى فى هذا السياق التنبيه إلى عدة محاور هامة يهدف إليها التصوف، منها: محور العلاقة مع الله، ومحور العلاقة مع الإنسان، ومحور العلاقة مع الطبيعة. فبالنسبة لمحور العلاقة مع الله، فكما قال الإمام القشيري فالصوفي يهدف إلى العيش لله وبالله ومع الله، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف يمر الصوفي بمجموعة من المحطات: الأخلاقية التى تؤدى إلى عملية الترقى الأخلاقى كى يصبح الإنسان خليفة الله على الأرض، ثم الروحية التى يسميها الصوفية بـ "المقامات والأحوال" كالتوبة والزهد والورع والخوف والتوكل والشوق والمحبة. أما بالنسبة للمحور الثانى الذى يحدد علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فقد قدم التراث الصوفى أنماطاً ونماذج رائعة تقوم على فكرة المحبة، وليس هناك دليل على ذلك أقوى من التراث العظيم الذى تركه لنا العديد من المتصوفة من أمثال الحسن البصرى، والحسين بن منصور الحلاج، وعمر بن الفارض، وفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومى، وغيرهم كثيرون. كما أن النزعة الصوفية بصفة عامة تسمح بإتاحة الفرصة للحوار والعيش مع الآخر، كما أنها ترفض أى نوع من التشدد الذى يؤدى إلى تعصب، وتاريخ التصوف الإسلامى يؤكد ذلك. وأما بالنسبة للمحور الثالث وهو علاقة الإنسان بالطبيعة، فقد أصبحنا نعانى اليوم من خطر يهدد النظام البيئى لكوكبنا مما يهدد وجودنا كبشر على هذا الكوكب، فأصبح الإنسان يتفنن فى تصنيع الأسلحة التى تقتل أخاه الإنسان وتؤدى إلى تدمير المخلوقات الأخرى. وكان من المدهش أن أجد نماذج من المتصوفة تدعو إلى المحبة ليس للإنسان فحسب بل لكل المخلوقات والجماادات، مما يؤدى إلى احترام وجودها واعتبارها دليلاً على قدرة الله، وعدم السير ضد القوانين الإلهية التى تحكم وتنظم سير الطبيعة. ومن المحاور الثلاثة السابقة يتضح

للقارئ العزيز أهمية التصوف ليس فقط من الناحيتين النظرية والأدبية، بل ومن الناحيتين العملية والوجودية أيضاً.

نشأت فكرة هذا الكتاب عندما أراد الأب أ.د. جوزيبي سكاتولين أن يجمع النصوص الصوفية التي كان يُدرّسها منذ فترة طويلة في روما، تسهيلاً للطلاب لكي يتسنى لهم قراءة النصوص الصوفية. ثم، عندما بدأنا هذا العمل معاً، رأينا أنه من الفائدة أن نزيد من النصوص الصوفية لكي نقدم للقراء العرب مجموعة من النصوص المهمة في التاريخ الإسلامي لكي يستفيدوا منها، وهكذا اتخذ العمل شكلاً أوسع وأكمل. إن العمل في هذا الكتاب قد حقق لي فائدة كبرى، حيث اشتركت في إعداده مع أستاذي الأب أ.د. جوزيبي سكاتولين الذي سبق أن أشرف على رسالتي للمجستير بعنوان: "التصوف عند عبد الملك الخركوشي دراسة تاريخية دلالية"، ويشرف على رسالتي للدكتوراه حالياً. وحقيقة الأمر أن هذا العمل المشترك مع حضرته، قد ساهم في تعميق رؤيتي للتصوف الإسلامي عن طريق الاستفادة من خبرته التخصصية والروحانية في هذا المجال. كما أنني استفدت منه في أمر آخر وهو الدقة في استخدام مناهج البحث العلمي. وله مني جزيل الشكر والعرفان.

الباحث / أحمد حسن أنور

القاهرة: 2008/10/10م

#### 4- حول هذا الكتاب

وأخيرًا، فهذا الكتاب الذى نقدمه للقراء الكرام يجمع عددًا وافراً من النصوص التى تمثل أهم الشخصيات والتيارات الصوفية مما يُعتبر الحقبة الكلاسيكية للتصوف الإسلامى، أى من القرن الأول إلى القرن السابع الهجرى، ما يقابل من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الميلادى. وقد رأينا من الأفضل أن يتم عرضها بترتيب تاريخى لإبراز التعاقب الواقعى للأشخاص وأفكارهم وتبصراتهم. وكذلك فضّلنا أن نجعل المتصوفة يتكلمون هم عن أنفسهم من خلال نصوصهم، فلا نكون نحن المتكلمين عنهم، كما يحدث فى الكثير من الكتب فى التصوف. لذلك قدّمنا كل شخصية منهم بمقدمات موجزة، بغير تطويل فى التعليقات والشروح التى قد تغطى المعنى المقصود من جانب الصوفى ذاته. لهذا الغرض اخترنا نصوصاً تمثل بالفعل جانباً مهماً أو أكثر من جانب من الفكر أو الرؤية لكل واحد من الصوفية المذكورين. ومن الواضح أن هذه المختارات لا يمكن أن تغطى كل الجوانب من الصوفية، إلا أننا نأمل أن هذه النصوص المقدمة هنا تعبّر بالقدر الكافى عن الفكر والرؤية والخبرة الخاصة بكل صوفى.

ويجب أن ننبه القارئ الكريم هنا أن هذه النصوص أُخذت من الكتب المنشورة والمتداولة للتراث الصوفى، ومن المعروف أن الكتب الصوفية المتوافرة نادراً ما تكون على مستوى جيد من التحقيق والضبط. فلذلك قمنا بإعادة قراءة ومقابلة هذه النصوص فى طبعاتها المختلفة القديمة منها والحديثة، وتصرفنا فيها بالضبط والتشكيل حسب فهمنا لها، كما أننا سجلنا بعض الاختلافات الواردة بين الطبعات المختلفة لهذه النصوص بوضعها بين { }، بالإضافة إلى ذلك فإننا ذكرنا فى الهوامش أفضل مرجع لكل نص من وجهة نظرنا حتى يتسنى للقارئ العودة إليه عند الحاجة. أما بالنسبة للمقدمات الخاصة بالشخصيات المذكورة فى هذا الكتاب، فقد

ذكرنا في الهوامش أهم المراجع التي اعتمدنا عليها، بالإضافة إلى الموسوعة الإسلامية<sup>(1)</sup> التي كانت لنا مرجعًا عامًا خاصة فيما يرتبط بتواريخ هذه الشخصيات. وفي النهاية، فهدفنا الأول والأساسي من هذا العمل تسهيل المقاربة من النصوص الصوفية لعامة الناس، ليس للقراء باللغة العربية فحسب، بل لكل القراء في سائر الديانات والثقافات العالمية تمهيدًا لإجراء حوار عميق مثمر بين كل الرُّوحانيات الدينية على مستوى العالم. فالتصوف الإسلامي يمثل في رأينا ثروة روحية عظيمة غير محصورة على المسلمين فحسب، إنما هي ثروة روحية تخص الناس كلهم، لأن عالم الروح هو عالم الأسرار الإلهية التي لا حدَّ لها إذ إنَّها واسعة سعة رحمة الله ومحبته في ذاته. فعلى هذا المستوى يجب أن يتلاقى ويتقابل الناس بعضهم بعضًا لكي يكتشفوا ويختبروا بالفعل أنهم جميعًا إخوة أمام الله.

ونتوجه بالشكر لكل من ساهم في هذا العمل وخاصة الأستاذ أحمد فتحي لمساعدته في كتابة العمل على الكمبيوتر ومراجعة النصوص، والأستاذين عبد الله درويش وعمرو زكريا على قيامهما بمراجعة الكتاب لغويًا، ومكتبة الآباء الدومينكان بالقاهرة لإمدادها لنا ببعض المراجع المهمة. وأخيرًا، نتقدم بشكر خاص إلى جمعية الآباء الكمبونيان على كل ما قدموه من تسهيلات لإتمام هذا العمل.

---

*The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Brill, Leiden, 1986-2004, vols. I-XII.*

(1)

## 5- التصوف بلسان الصوفية تعريف التصوف عند الكلاباذى

أبو بكر الكلاباذى (ت 380هـ/ 990م أو 384هـ/ 994م)<sup>(1)</sup>

هو أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذى. لا نعرف شيئاً كثيراً من أخباره، إلا أن اسمه يدل على أن أصله كان من كلاباذ من أحياء بخارى، مدينة فى خراسان، حيث توفى أيضاً سنة 380هـ/ 990م أو 384هـ/ 994م وهناك يقع ضريحه. وشهرته متعلقة بكتابه "التعرف لمذهب أهل التصوف" حيث يثبت أنه على دراية واسعة بتعاليم أكبر شيوخ الصوفية من مدرسة بغداد خاصة الحلاج (الذى يكثر الكلاباذى من ذكره فى كتابه) والجنيد والنورى والخراز وغيرهم. ويهتم الكلاباذى فى كتابه اهتماماً بالغاً بإثبات أن تعاليم وممارسات الصوفية تتماشى مع التقليد السننى. وكذلك يحاول التوفيق بين المذهبين الشافعى والأشعرى فهو يقبلهما معاً. وفى كتابه وصف موجز لعدد من المقامات الصوفية التى تبدأ بالتوبة وتنتهى بالمحبة. إلا أن الكلاباذى يعترف أيضاً أن بعض الأحوال الصوفية قد تثير الشك بين بعض الناس، لذلك يجب الحذر فى التعبير عنها. ونقدم هنا بعض النماذج من رؤيته الصوفية فى موضوع تعريف التصوف.

قَوْلُهُمْ فِي الصُّوفِيَّةِ، وَلَمْ سُمِّيَتِ الصُّوفِيَّةُ صُوفِيَّةً (2)

قالت طائفة: "إِنَّمَا سُمِّيَتِ الصُّوفِيَّةُ صُوفِيَّةً لَصَفَاءِ أَسْرَارِهَا، وَنَقَاءِ آثَارِهَا".  
وقال بشر بن الحارث: "الصُّوفِيُّ مَنْ صَفَا قَلْبُهُ لِلَّهِ".

(1) شيمل، الأبعاد الصوفية، ص 98-99: Knysh, *Mysticism*, p. 123-124

(2) أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذى، كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ص 219.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: "الصُّوفِيُّ مَنْ صَفَتْ لَهُ مُعَامَلَتُهُ، فَصَفَتْ لَهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَرَامَتُهُ".

وقال قَوْمٌ: "إِنَّمَا سُمُّوا صُوفِيَّةً لِأَنَّهُمْ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ بَارِئِنْفَاعِ هَمَمِهِمْ إِلَيْهِ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَيْهِ، وَوُقُوفِهِمْ بِسَرَائِرِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ".

وقال قَوْمٌ: "إِنَّمَا سُمُّوا صُوفِيَّةً لِقُرْبِ أَوْصَافِهِمْ مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ الصُّفَّةِ، الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

وقال قَوْمٌ: "إِنَّمَا سُمُّوا صُوفِيَّةً لِلْبَسِيقَةِ الصُّوفِ".

وأما مَنْ نَسَبَهُمْ إِلَى الصُّفَّةِ وَالصُّوفِ فَإِنَّهُ عَبَّرَ عَنْ ظَاهِرِ أَحْوَالِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ قَدَّ تَرَكُوا الدُّنْيَا، فَخَرَجُوا عَنِ الْأَوْطَانِ، وَهَجَرُوا الْأَخْدَانَ<sup>(1)</sup>، وَسَاحُوا فِي الْبِلَادِ، وَأَجَاعُوا الْأَكْبَادَ، وَأَعْرَوُا الْأَجْسَادَ، لَمْ يَأْخُذُوا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا لَا يَجُوزُ تَرْكُهُ، مِنْ سِتْرِ عَوْرَةٍ وَسَدِّ جُوعَةٍ.

فَلِخُرُوجِهِمْ عَنِ الْأَوْطَانِ سُمُّوا غُرَبَاءَ، وَلِكثْرَةِ أَسْفَارِهِمْ سُمُّوا سِيَاحِينَ.

وَمِنْ سِيَاحَتِهِمْ فِي الْبَرَازِي وَإِيْوَاتِهِمْ إِلَى الْكُهُوفِ عِنْدَ الصَّرُورَاتِ سَمَّاهُمْ بَعْضُ أَهْلِ الدِّيَارِ "شُكْفِيَّةً" وَالشُّكْفُ بُلْغَتُهُمْ {الْفَارْسِيَّةُ}: الْغَارُ وَالْكَهْفُ.

وَأَهْلُ الشَّامِ سَمَّوهُمْ "جُوعِيَّةً" لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَنَالُونَ مِنَ الطَّعَامِ قَدْرَ مَا يُقِيمُ الصُّلْبَ لِلصَّرُورَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتُ يُقْمَنَ صُلْبُهُ"<sup>(2)</sup>.

وقال السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ وَوَصَفَهُمْ فَقَالَ: "أَكْلُهُمْ أَكْلُ الْمَرْضَى، وَنَوْمُهُمْ نَوْمُ الْغَرَقَى، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْخَرَقَى".

وَمِنْ تَخَلِّيهِمْ عَنِ الْأَمْلاكِ سُمُّوا فُقَرَاءَ.

قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ الصُّوفِيُّ؟ قَالَ: "الَّذِي لَا يَمْلِكُ وَلَا يُمْلِكُ"؛ يَعْنِي: لَا يَسْتَرِقُّهُ الطَّمَعُ.

وَقَالَ آخَرُ: "هُوَ الَّذِي لَا يَمْلِكُ شَيْئًا، وَإِنْ مَلَكَهُ بَدَلَهُ".

(1) الأخدان جمع خدن وخدين، وهو الصديق والصاحب المحدث الذي يخادتك فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن، انظر: لسان العرب، مادة خدن.

(2) يذكر المحقق: أخرجه الترمذي في صحيحه (كتاب الزهد، باب 47) واللفظ له، والإمام أحمد في مسنده: ج 4 ص 132.

وَمِنْ لِبْسِهِمْ وَزِيَّتِهِمْ سُمُّوا صُوفِيَّةً، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَسُوا لِحْظُوظِ النَّفْسِ مَا لِأَنَّ مَسَّهُ  
وَحَسُنَ مَنْظَرُهُ، وَإِنَّمَا لَبَسُوا لِسْتَرِ الْعَوْرَةِ، فَتَجَزَّؤا بِالْحَشِينِ مِنَ الشَّعْرِ، وَالغَلِيظِ  
مِنَ الصُّوفِ.

ثم هذه كلها أحوال أهل الصُّفَّة، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا غرباء فقراء مهاجرين، أُخرجوا من ديارهم وأموالهم. ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقالا: "يَخْرُونَ مِنَ الْجُوعِ حَتَّى تَحْسَبُهُمُ  
الْأَعْرَابُ مَجَانِينَ. وَكَانَ لِبَاسُهُمُ الصُّوفُ، حَتَّى إِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَعْرِقُ فِيهِ  
فَيُوجَدُ مِنْهُ رَائِحَةُ الصَّنَانِ إِذَا أَصَابَهُ الْمَطَرُ".

هذا وصف بعضهم لهم، حتى قال عيينة بن حصن للنبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّهُ  
لِيُؤْذِنِي رِيحُ هَؤُلَاءِ أَمَا يُؤْذِيكَ رِيحُهُمْ؟".

ثم الصوف لباس الأنبياء، وزى الأولياء.

وقال أبو موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّهُ مَرَّ بِالصَّخْرَةِ مِنَ  
الرُّوحَاءِ سَبْعُونَ نَبِيًّا خُفَاءً عَلَيْهِمُ الْعِبَاءُ يُؤْمُونَ بِالنَّبِيِّ الْعَتِيقِ"<sup>(1)</sup>.

وقال الحسن البصري: "كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَلْبَسُ الشَّعْرَ، وَيَأْكُلُ مِنَ الشَّجَرَةِ،  
وَيَبِيْتُ حَيْثُ أَمْسَى".

وقال أبو موسى: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْبَسُ الصُّوفَ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ،  
وَيَأْتِي مَدْعَاةً<sup>(2)</sup> الضَّعِيفَ".

وقال الحسن البصري: "لَقَدْ أَدْرَكْتُ سَبْعِينَ بَدْرِيًّا مَا كَانَ لِبَاسُهُمْ إِلَّا الصُّوفَ".  
فلما كانت هذه الطائفة بصفة أهل الصُّفَّة فيما ذكرنا، ولبسهم وزيتهم زي أهلها،  
سُمُّوا صُفِّيَّةً وَصُوفِيَّةً.

(1) في صحيح مسلم (كتاب الصلاة، حديث 15).

(2) المدعاة والمدعاة: ما دعوت إليه من طعام وشراب (لسان العرب، مادة دعا).

ومن نسبهم إلى الصُّفَّةِ والصَّفِّ الأوَّلِ فإنه عبَّرَ عن أسرارهم وبواطنهم، وذلك أن من ترك الدنيا وزهدَ فيها وأعرضَ عنها، صَفَّى اللهُ سِرَّهُ، ونَوَّرَ قَلْبَهُ. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إِذَا دَخَلَ الثُّورُ فِي الْقَلْبِ انشَرَحَ وانفَسَحَ"، قيل: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: "التَّجَافَى عَن دَارِ العُرُورِ، والإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الخُلُودِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ"<sup>(1)</sup>.

فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من تجافى عن الدنيا نَوَّرَ اللهُ قلبه. وقال حارثة حين سأله النبي صلى الله عليه وسلم: "مَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟" قال: عَزَفْتُ بِنَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَأَطْمَأْتُ نَهَارِي، وَأَسْهَرْتُ لَيْلِي، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ، وَإِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَعَادَوْنَ. فأخبر أنه لما عَزَفَ عَنِ الدُّنْيَا نَوَّرَ اللهُ قلبه، فكان ما غاب عنه بمنزلة ما يشاهده. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى عَبْدٍ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَارِثَةَ"<sup>(2)</sup> فأخبر أنه منوَّرَ القلب. وسميت هذه الطائفة نُورِيَّةً لهذه الأوصاف.

وهذا أيضًا من أوصاف أهل الصُّفَّةِ، قال الله تعالى: (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ) [سورة التوبة، الآية: 108]. والتطهَّرَ بالظواهر عن الأنجاس، وبالباطن عن الأهجاس. وقال الله تعالى: (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ) [سورة النور، الآية: 37]. ثم لصفاء أسرارهم تصدَّقَ فراسَّتُهُمْ.

(1) يذكر محقق كتاب التعريف هامش (4) ص 14: "أخرجه الغزالي في إحياء علوم الدين، قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: إن صدر هذا الحديث رواه الحاكم في المستدرک. أخرج الحديث الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، السيوطي في الدر المنثور، وابن كثير في تفسيره، والقرطبي في تفسيره".

(2) يذكر المحقق: قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: الحديث أخرجه البزار من حديث أنس، والطبراني من حديث الحارث بن مالك، وكلا الحديثين ضعيف. انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ج4، ص243.

قال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ"<sup>(1)</sup>. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "أُلْقِيَ فِي رُوعِي أَنْ ذَا بَطْنِ بِنْتِ خَارِجَةَ"، فكان كما قال.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الْحَقَّ لَيَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ"<sup>(2)</sup>. وقال أُوَيْسُ الْقُرْنِي لَهْرَمِ بْنِ حِيَانَ حِينَ سَلَّمَ عَلَيْهِ: "وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا هَرِمَ ابْنَ حِيَانَ" ولم يكن رآه قبل ذلك؛ ثم قال له: "عَرَفَ رُوحِي رُوحَكَ". وقال أبو عبد الله الأنطاكي: "إِذَا جَالَسْتُمْ أَهْلَ الصِّدْقِ فَجَالِسُوهُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُمْ جَوَاسِيسُ الْقُلُوبِ يَدْخُلُونَ فِي أَسْرَارِكُمْ وَيَخْرِجُونَ مِنْ هِمَمِكُمْ". ثم من كان بهذه الصفة من صفوة سرّه وطهارة قلبه ونور صدره فهو في الصف الأول، لأن هذه أوصاف السابقين.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بغيرِ حِسَابٍ" ثم وصفهم وقال: "الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكُونُونَ وَلَا يَكْتُونُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"<sup>(3)</sup>.

فلصفاء أسرارهم، وشرح صدورهم، وضيء قلوبهم: صحّت معارفهم بالله، فلم يرجعوا إلى الأسباب ثقةً بالله عز وجل، وتوكلًا عليه، ورضا بقضائه. فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها ومعاني هذه الأسماء كلها في أسامي القوم والقابهم، وصحّت هذه العبارات وقربّت هذه المآخذ. وإن كانت هذه الألفاظ متغايرة في الظاهر، فإن المعاني متفقة؛ لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية.

(1) يذكر المحقق: "هذا الحديث رواه الترمذي في السنن، وأبو حنيفة في مسنده، وأبو نعيم في حلية الأولياء، والطبراني في المعجم الكبير، وابن كثير في تفسيره، والزيدي في إتحاف السادة المتقين، وابن حجر في فتح الباري، والتمتقي الهندي في كنز العمال، والبخاري في التاريخ، والسيوطي في تفسير الدر المنثور.

(2) يذكر المحقق "لم أجده بهذا اللفظ، وفي سنن الترمذي كتاب المناقب، باب 18، وأخرجه بلفظ الترمذي ابن سعد في الطبقات الكبرى، ج3، ص205".

(3) يذكر المحقق: أخرجه من حديث عمران بن حصين: البخاري في صحيحه (كتاب الطب، باب 17) ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، حديث 371، 372) والإمام أحمد في مسنده (ج1 ص401).

وإن أُضيفت إلى الصَّفِّ أو الصُّفَّة كانت صُفِّية أو صُفِّية، ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء فى لفظ الصوفية وزيادتها فى لفظ الصَّفِّية والصُّفِّية إنما كانت من تداوُل الألسن.

وإن جعل مأخذه من الصوف، استقام اللفظ، وصحّت العبارة من حيث اللغة. وجميع المعانى كلها من التخلّى عن الدنيا وعزوف النفس عنها، وترك الأوطان ولزوم الأسفار، ومنع النفوس حظوظها، وصفاء المعاملات، وشفوة الأسرار، وانسراح الصدور، وصفة السُّبَّاق.

وقال بندار بن الحسين: "الصُّوفِيّ من اختارَهُ الحقُّ لِنَفْسِهِ فَصَافَاهُ، وَعَن نَفْسِهِ بَرَّاهُ، ولم يُرِدْهُ إلى تَعَمُّلٍ وَتَكَلُّفٍ بِدَعْوَى. وَصُوفِيّ على زِنَةِ عَوْفِيّ، أى عَافَاهُ اللهُ فَعَوْفِيّ؛ وَكُوفِيّ، أى كَافَاهُ اللهُ فَكُوفِيّ؛ وَجُوزِيّ، أى جازاه اللهُ، ففِعِلُّ اللهُ بِهِ ظاهِرٌ فى اسمِهِ والله المتفرِّدُ به".

وقال أبو على الروذبارى وسئل عن الصوفى فقال: "مَنْ لَيْسَ الصُّوفَ عَلى الصِّفَاءِ، وَأَطْعَمَ الهَوَى ذَوْقَ الجَفَاءِ، وَكانَتِ الدُّنْيا مِنْهُ عَلى القَفَا، وَسَلَكَ مِنْها جِ المِصْطَفَى".

وسئل سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ: من الصوفى؟ فقال: "مَنْ صَفا مِنَ الكَدْرِ، وامْتَلَأَ مِنَ الفِكرِ، وانْقَطَعَ إلى اللهِ مِنَ البِشْرِ، واستَوَى عِنْدَهُ الدَّهَبَ والمَدْرَ"<sup>(1)</sup>.

وسئل أبو الحسن النورى: ما التصوف؟ فقال: "تَرَكُ كُلِّ حَظٍّ لِلنَّفْسِ".  
وسئل الجُنَيْدُ عن التصوف، فقال: "تَصْفِيَةُ القَلْبِ عَن مَوافِقَةِ البَرِيَّةِ، ومُفارقةِ الأَخلاقِ الطَّبِيعِيَّةِ، وإخْماءِ الصِّفَاتِ البِشْرِيَّةِ، ومُجانِبَةُ الدَّواعى النُّفْسَانِيَّةِ، ومُنازَلَةُ الصِّفَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ، والتَّعَلُّقُ بالعلومِ الحَقِيقِيَّةِ، واستِعْمالُ ما هُوَ أَوْلَى عَلى الأَبْديَّةِ، والنُّصْحُ لجمِيعِ الأُمَّةِ، والوَفاءُ اللهُ على الحَقِيقَةِ، واتِّباعُ الرُّسُولِ صلى اللهُ عليه وسلم فى الشَّرِيعَةِ".

(1) المدر: قطع الطين اليابس، وقيل: الطين العلك الذى لا رمل فيه، انظر: لسان العرب، مادة مدر.

وقال يوسف بن الحسين: "لكلِّ أُمَّةٍ صَفْوَةٌ، وهم وِدِيعَةُ اللهِ الَّذِينَ أَحْفَاهُمْ عَنْ خَلْقِهِ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَهُمْ الصُّوفِيَّةُ".

قال رجل لسهل بن عبد الله التستري: مَنْ أَصْحَبُ مِنْ طَوَائِفِ النَّاسِ؟ فقال: "عليك بالصُّوفِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَكْثِرُونَ، وَلَا يَسْتَنْكِرُونَ شَيْئًا، وَلِكُلِّ فِعْلٍ عِنْدَهُمْ تَأْوِيلٌ، فَهَمَّ يَعْذِرُونَكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ".

وقال يوسف بن الحسين: سألت ذا النون من أصحاب؟ فقال: "مَنْ لَا يَمْلِكُ وَلَا يُنْكَرُ عَلَيْكَ حَالًا مِنْ أَحْوَالِكَ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِكَ وَإِنْ كَانَ عَظِيمًا، فَإِنَّكَ أَحْوَجُ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ أَشَدَّ مَا كُنْتَ تَغْيِيرًا".

وقال ذو النون: رأيتُ امرأةً ببعضِ سواحلِ الشَّامِ، فقالت لها: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ رَحِمَكَ اللهُ؟ قالت: مِنْ عِنْدِ قَوْمٍ (تَتَجَاوَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) [سورة السجدة، الآية: 16]، قلت: وَأَيْنَ تُرِيدِينَ؟ قالت: إِلَى (رِجَالٍ لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) [سورة النور، الآية: 37]، قلت صِفِيهِمْ لِي! فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ:

فَمَا لَهُمْ هَمَمٌ تَسْمُو إِلَى أَحَدٍ  
يَا حُسْنَ مَطْلَبِهِمُ لِلوَاحِدِ الصَّمَدِ  
مِنَ الْمَطَاعِمِ وَاللَّذَاتِ وَالْوَالِدِ  
وَلَا لِرَفْحِ سُرُورٍ حَلٍّ فِي بَلَدِ  
قَدْ قَارَبَ الْخَطْوَ فِيهَا بَاعِدُ الْأَبْدِ  
وَفِي الشَّوَامِخِ تَلْقَاهُمْ مَعَ الْعَدَدِ

قَوْمٌ هُمُومُهُمْ بِاللَّهِ قَدْ عَلِقَتْ  
فَمَطْلَبُ الْقَوْمِ مَوْلَاهُمْ وَسَيِّدُهُمْ  
مَا إِنْ تَنَازَعُهُمْ ذُنُوبًا وَلَا شَرَفٌ  
وَلَا لِلْبَسِ ثِيَابٍ فَائِقٍ أَنْقِ  
إِلَّا مُسَارَعَةً فِي إِثْرِ مَنْزِلَةٍ  
فَهُمْ رَهَائِنُ غُدْرَانٍ وَأُودِيَةٍ